ليس كما يبدو

مقالات فلسفية ووجدانية

ريماس محمد صقر اللوانسة

ريماس محمد صقر اللوانسة

ليس كما يبدو

مقالات فلسفية ووجدانية

ذاتك الحرّة

إذا بلغ الإنسان مرتبة التخلي الواعي، فقد ظفر بالقوة التي لا تُكتسب من كثرة التعلّق، بل من قدرة النفس على التحرّر. فالتخلي ليس جفاء، بل صفاء؛ وهو لا يعني انعدام المشاعر، بل السيطرة عليها.

علم النفس يُخبرنا أن التعلّق المفرط يولّد هشاشة، لأننا نربط استقرارنا العاطفي بعوامل خارجية، بينما القوة الحقيقية تنبع من الداخل. فكلّما قلّ تعلّقك، زاد اتزانك؛ وكلّما استغنيت عمّا يؤذيك، اقتربت من ذاتك الحرّة.

المستغني لا يُكسر، لأنه لا يُمسك بشيء يخشى فقدانه، ولا يتشبّث بمن قد يُؤذيه. هو كالطير، خفيف الجناح، لا تُقيّده الأغصان، وإن حطّ، اختار بحكمة، وإن طار، لم يلتفت.

اعترافات منافق حديث التخرج بدرجة امتياز

يبدو أنني — ويا للأسف — قد التحقت أخيرًا بنادي النفاق العريق، ذاك الذي لطالما كنت ألعنه من بعيد، وأدّعي عليه الطهارة كراهبٍ في دير نسي العالم.

فها أنا ذا، أقف على عتبة هذا العالم المزخرف بالكلمات المعسولة والابتسامات البلاستيكية، أطرق بيدي على بابه، لا بل... أكسره دخولًا، وأصرخ: "مرحبًا بي!".

في البداية، قاومت. حاولت أن أتمسك بصدقٍ مهترئ، وأمانةٍ مستهلكة، لكن اكتشفت أن الصدق اليوم لا يُطعم خبزًا، بل يُطعمك سخرية زملائك وسذاجة نظراتهم.

أما النفاق؟ فبطاقته الذهبية تفتح لك الأبواب المغلقة، وتُقدّم لك القهوة على طبق من التصنّع، مع ابتسامة تقول: "أنت منّا الآن".

واعترف لكم — وبكل وقاحة صادقة — أنني نلت شهادة النفاق بامتياز مع مرتبة الشرف، فقد أتقنت فن الإيماء بالرأس على كلام لا أؤمن به، وأبدعت في التصفيق الحار لأفكار تافهة، بل وربما رشّحتها لجائزة نوبل في الهراء.

وها أنا أتساءل، أألوم المنافقين من حولي وقد أصبحت الآن زميلًا لهم في المهنة؟ أأصرخ ضد الزيف وأنا أغمس يدي في حبره كل يوم؟

أم أبتسم وأهمس: لكم أول ابتسامة مزيفة!"

الذات المركّبة: قراءة في قناعات الإنسان الثلاث

يتكوّن الإنسان، من حيث بنيته الفكرية والإيمانية، من ثلاث قناعات رئيسية: القناعة الاستنباطية، والقناعة الذاتية، والقناعة الدينية. فالإنسان، إذا نظرنا إليه كنتاجٍ فكري ونفسي، إنما هو ثمرة هذه القناعات الثلاث.

ففي داخله تتشكّل أفكار ومعتقدات يكاد لا يتزحزح عنها، إذ تمثّل له الثوابت التي ينطلق منها في رؤيته للعالم. وإن تأملنا في تكوين هذه البنية المركّبة، نجدها ترتكز على المحاور الثلاثة التالية:

1. القناعة الاستنباطية: وهي القناعة التي يستنبطها الإنسان من تجارب الآخرين أو من محيطه الاجتماعي والفكري. ورغم أنها لا ترتبط به بشكل مباشر، فإنها تؤثر فيه بعمق، وتترسخ في داخله نتيجة تكرارها أو قوة تأثيرها العاطفي أو العقلي.

2. القناعة الذاتية: وهي ما يختبره الإنسان بنفسه، ويعيشه بتفاصيله، حتى يغدو جزءًا من تكوينه النفسي والعقلي. هذه القناعة تُولد من التجربة الشخصية، ومن الانغماس في مواقف الحياة، فتصير له أساسًا للفهم والإيمان.

3. القناعة الدينية: وهي تتجلّى في إيمان الإنسان بعقيدة ما، وقد تمثّل جانبًا روحيًا عميقًا يشكّل نسبة لا يستهان بها من قناعاته الأخرى. فديانة الإنسان كثيرًا ما تكون مرآة لبقية قناعاته، بل قد تفسّرها وتوجّهها.

من هنا، يمكننا القول إن الإنسان لا يكون إنسانًا بكل أبعاده إلا حين نفهم كيف تداخلت هذه القناعات الثلاث في تشكيله، وكيف أثّرت كل واحدة منها في طريقة تفكيره وتعامله مع الحياة.

كيف نعرف قيمة الاشياء والأشخاص في حياتنا

كيف نعرف قيمة الأشياء والأشخاص في حياتنا؟ ما الذي يحدد قيمتهم الحقيقة؟ كيف نعرف ما نحب وما نفضل؟ من الذي يحدد ذلك؟ أهو أنا؟ أم أنني لا أملك قرارًا وليس لي يد في ذلك؟ أهي المشاعر؟ ولكن المشاعر شيء ليس حقيقيًّ ا وليس ثابتًا ولا أعده معيارًا.

إذا ما كان لذلك الشيء قيمة حقيقة كيف لي معرفة حبي للصيف أم للشتاء؟ كيف أفضل ذلك على هذا؟ أحدد أوقات كرهي للحر الشديد أم كرهي للبرد الشديد، أضع معيارًا وهميًّ ا، أم أنه حقيقة؟

أشك الآن بكل ما أحب وكل ما أكره، أشك بكل مفضل لدي وكل غير مرغوب، متى صنفت تلك الأشياء؟ متى اخترت أن أضعها بهذا التصنيف؟ لماذا نصحو أحيانا من بعد مدة ليست بالقليلة وكأننا كنا في غيبوبة، لا ندرك شيئًا من حولنا، لا نصدق شيئًا ولا نؤمن بشيء.

متى أصبحت القهوة هي مشروبي المفضل؟ لماذا لا أحب الشاي؟ يبدو أنها أصعب اللحظات هذه التي تغدو بها لا تؤمن بشيء من حولك، حتى إنك لا تؤمن بنفسك، فتفقد كل شيء.. كل شيء لدرجة أنك تشعر بالفراغ المريب القاتل الذي يجعلك تدرك أن عمرك ضاع سدى، لأنك انتهى بك المطاف لا تؤمن بشيء كأنك لم تعش يومًا واحدًا.

كأن ذاكرتك مسحت وكأن عقلك خالٍ وقلبك خالٍ، كأنك تركت وراءك كل ما تؤمن به وأصبحت لا تتبع معتقدًا، ولا تملك قيمة، وليس لديك مبدأ، فكأنك الغريب داخل نفسه.

هذا ما يحدث عندما يثير الشك قلبك تجاه كل ما تؤمن به، كل ما تحبه، كل ما تعتقد أنه يمثلك، أنه جزء منك، يصيبه الأمر، تسأل لماذا حدث ذلك معي؟ لماذا انتهى بي المطاف لا أؤمن بشيء حتى نفسي؟ ولا أثق كيف أعيد ترميم هذه الروح المتهالكة، كيف أعيد هذه النفس المفقودة وأرمم جميع ما هدمته بيدي؟

لست أرى أن ذلك ذنب أحد غيري، فوحدي من رمى نفسه نحو التهلكة، ووحدي من سيعيد كل شيء أفضل بكثير مما كان عليه.

غادر مهما كان الرحيل قاسياً

كلما سعينا للارتقاء بألفاظنا، وتحليقنا بعيدًا عن الألفاظ الرخيصة التي تعج بها الأحاديث العابرة، ورفعنا راية الأمانة والصدق في تعاملنا مع الآخرين، وجدنا أنفسنا عالقين في شبكة من الضعف المحيط، يدفعنا المحيط بقوة إلى عالمهم المظلم، حيث يغيب الاحترام، وتذبل معاني التقدير، ويضيع الطيب بين صرخات اللامبالاة.

في هذا العالم، نحاول أن نسمو في سماء الكلمات والنيات، لكنهم يجرُّوننا نحو الأرض التي لا تجد فيها إلا الخواء. وعلى الرغم من أنَّ قلوبنا تصدح بالرفض لهذه الأنماط، فإنهم يحاولون فرض أنفسهم علينا، ويريدوننا أن نُطوِّع ألفاظنا وطبائعنا لتتماشى مع فوضاهم.

وفي هذا المشهد، نجد أنفسنا نُصارع بكل قوتنا لنحافظ على نقاء فكرنا، ساعين لكي نبقى كما نحن، بعيدين عن التلوث الذي يحيط بنا. نعم، على الرغْم من أنَّ غربتنا عن هذا العالم تكاد تكون أكبر من أن تُحتمل، وعلى الرغم من شعورنا العميق بأننا لا ننتسب إلى هذا المكان، يبقى خوفنا الأكبر أن نفقد هويتنا وسط هذا الصراع العميق. قد تكون المعركة طويلة ومُرهقة لدرجة أننا ننسى هدفنا الأساسي، لكنَّ الحقيقة أننا لم نُخلق لنسير مع القطيع، بل لنبقى أصواتًا مميزة في زحام الحياة.

أحيانًا يكون من يتمسك بالأخلاق غريبًا في الوسط المحيط

الاختلاف طبيعة بشرية، إنه سنة من سنن الحياة، ولكن أن تكون الغريب في وطنك هو نوع من الهلاك الروحي. هذا الصراع الداخلي الذي نعيشه هو أقسى أنواع الألم، إذ نصارع مع أنفسنا ومع محيطنا في آنٍ واحد. وجوههم تبتسم، ولكن خلف تلك الابتسامات يكمن خبثٌ وسوء، يختبئون وراء أقنعة تتراشق على وجوههم كالمطر، يسرقون منا صفاء النية ووضوح الرؤية شيئًا فشيئًا.

للأسف، أصبحنا نعيش في زمن يُنظر فيه إلى النبل والأخلاق على أنهما عبء ثقيل على صاحبهما، إذ إنَّ تمسكنا بمبادئنا أصبح غير مقبول في عالم يحيا على القيم الزائفة. ومع ذلك، نواصل الصراع في صمت، نُكمل المسير، ونتشبث بأنفسنا على الرغم من العواصف التي تهب من كل اتجاه. نبقى نحن، كما نريد لأنفسنا، فلا نريد إلا أن نكون أنفسنا دون أن نُجبر على الانحراف عن الطريق. وعلى الرغم من الألم وما نواجهه من قسوة الأشخاص والمواقف، وغربة انتمائنا؛ نأمل أن نعيش بسلام داخلي، بعيدين عن هذا الزخم الذي يلاحقنا في كل زاوية

غادر إذا شعرت بأنك غريب، غادر إذا لم تشعر بمودة الآخرين، غادر عزيزًا كريمًا مهما كان الرحيل قاسيًا غادرًا وحسب، غادر الأحاديث، غادر كل ما لا يتعلق بك، كف عن المشاركة بشيء لا يخصك، لا تصدق أي رابطة، فأنت وحدك، وهم وحدهم؛ لأننا أصبحنا نعيش في عالم لا يعترف بالقومية، ويقدس الفردية.

أنت لست سوى أنت، فأنت لا تمثل أحدًا، ولا أحد يمثل الآخر، أخطاؤك تمثلك، ونجاحاتك كذلك، أما أننا ننتمي إلى بعضنا، فذلك حديث كذب، فقد أصبح العالم غريبًا، كل منا غريب يتمتع باستقلاليته، له حياته الخاصة، وعالمه الخاص مهما جمعتنا الذكريات والأسماء، وقربت البيوت وحدود الوطن نحن أغراب عن بعضنا البعض؛ لذلك غادر باكرًا، غادر قبل أن تطرد، واهرب عن كل ما يخص الآخرين، واصنع حدودًا لنفسك، ولا تسمح لأحد أن يشاركك حدودك.

تذكر دائمًا مهما طال البقاء، سيأتي وقت سترحل به، إنه عالم محكوم به البقاء وحدنا وخصوصيتنا، وذلك ليس شيء سيئًا، الجميع زوار عابرون على هذا الطريق، ثم هم راحلون.

لكل منا رحلة، وكثيرة هي المحطات؛ لذا علينا الاعتياد على فكرة الغربة، وفكره الوداع، علينا تقبل أننا لا ننتمي إلى بعضنا بعضًا، وأن حياتنا ليست سوى ساعات وربما دقائق أو أيام، وقد تكون سنوات، ثم بأي لحظة سيحين الوداع، فقد يحضر الموتُ أحدنا، وقد يُكتب لنا الافتراق في مسارات الحياة المختلفة.

وقلت سابقًا: إنه عالم فرداني، الفرد يعبر عن نفسه وحسب، وما من جماعة، فقد تجمعكم بعض العناوين من حدود وطن ولغة واحدة، لكن لا انتماء، ولا صلة تجمعك بالآخرين كثيرًا جدًّ ا، هم الراحلون والقليل القليل من الباقين الذين لم يحن وقت وداعهم وحسب.

غادر، واحمل معك مشاعرك الخالدة، فمشاعرهم مثلهم، ترحل وتتغير بسرعة، تكاد تعجز عن تصديق الحقيقة؛ لذا تقبل الفكرة سريعًا، واحمل حقائبك وغادر كل شيء، تقبل عدم وجود ما يعنيك، أما الآخرون فهم في دائرة غير المهم؛ لذا غادر غريبًا، وتقبل غربتك وغربتهم، فهذه حقيقة اليوم.

قليل يستحق أن يروى

قليل هو ما أظن أنه حقيقي ويستحق أن يروى، فربما هو صواب وربما هو خطأ، فلك القرار عزيزي القارئ..

عزيزي.. اخلع عينيك وانظر بهما لنفسك، فلن تجد غيرك معك صريحًا.

لك شخصية واحدة، وعلى ألسنة الناس خمس.

أحيانا الخطأ الذي تظن أنه بحقك ليس بحقك فقط، بل بحقك وحق الآخرين.

عندما تصبح الحياة بائسة تبحث عمَّن يخرجك منها فقط، عندما تصبح الحياة بائسة ينصرف الناس وراء الوهميات ويتعلقون بالخيالات.

دعك من أسلوب الضحية كثيرًا، فهم الضحايا.

يأتي الكثير بعد فوات الأوان، نحن دائمًا متأخرون.

حينما تسمع عني من الأشخاص إياك إياك أن تظن أنك قد عرفتني.

توجد مساحة لا يعرفها كثيرون، هم الذين لا ترغب بهم الحياة، ولا يرغب بهم الموت، الذين غادرت أرواحهم الجسد وتركتهم هناك

المنتصف.

غدت الحياة مثل ألبوم صور لا يحتوي إلا على لونين؛ الأبيض والأسود.

اقرأ أيضًا: خاطرة «رفقًا بالطفولة أيها العالم».. خواطر إنسانية

ودعت الأمل مبكرًا في سن العشرين.

ظننت أن الإنسان لا يمكن أن يقف عن التفكير، ولكن توجد لحظة بلادة تعجزك عن اتخاذ قرار صغير في أمورك اليومية.

إذا أردت إخبارك عن نفسي، وكنت صادقًا بذلك، فسأزف لك كل ما أعرفه، فيوجد كثير مما لا أعرفه.

يوجد ميزان في داخل كل منا، يقع به الأشخاص حسب التقاء الأرواح.

هنا سأكف عن الثرثرة، وسأصمت طويلًا، فلم تأخذني الثرثرة إلى أي مكان.

أحاول من جديد أن أغادر عالم الظن، أن أعيش بلا ظنون بالآخرين.

وعدت نفسي ألا أخونها، ولكنني لم أوفِّ لها بأي وعد من وعودي حتى خسرت استحقاقي لما تكنه لي من احترام.

أحيانًا تُقتل الرغبة فينا لأننا نعيش مع أشخاص لا يملكونها أو يمقتونها حتى.

أكره أن يكون كلامي مبتذلًا على الرغم من كثرة حدوث ذلك.

أرغب بأن أكون إنسانًا بلا أحكام، شخصًا لا يظن فيك شيئًا إلا ما قد تعرف نفسك به.

لا يوجد شيء خاطئ سوى وجهة نظرك.

أحيانًا يجب علينا أن نعترف أنهم لم يعودوا يناسبوننا.

إن تغيرت العقليات لا مجال للبقاء.

قد يكون الأمل سلاحًا ذا حدين، فقد يقتلك وقد يحييك.

لماذا نقع في سوء الفهم وسوء الظن

نحن نختلف، ومن منطلق اختلافنا هذا يصعب علينا في الغالبية العظمى من الحالات فهم بعضنا بعضًا.

فتجد أننا في كثير من الأوقات نقع في سوء الفهم أو سوء الظن، أو قد نخلق بيننا فجوة لأننا مغرمون بقراءة الآخر وتفسير التصرفات. فلولا ذلك لما وُجدت علوم مثل علم النفس، ولا سمعنا بلغة الجسد، ولا سمعنا بشيء اسمه تحليل النفس البشرية.

ليس ذلك فحسب بل نحن أيضًا نرغب بقراءة أنفسنا، فيجعلنا ذلك نتمركز أحيانًا حول ذواتنا، فيخلق ذلك التمركز شيئًا من الظلم غير المقصود، فنحكم على الغير بنظرة دنيوية مستنقصين من عواطفهم، ضاربين بعرض الحائط خصوصياتهم وطريقتهم في التفكير.

لدى كل منا عقلية ونفسية وطريقة تفكير، تحكمها مبادئ وعقيدة وبيئة معينة، تجعل هذه العوامل تصرفات الغير الغريبة تبدو لنا أكثر وضوحًا وفهمًا.

عندما ننظر من بعيد إلى التعاملات نجد أن بعض التصرفات غريبة، وربما همجية أو سيئة، وربما جميلة وراقية، وأحيانًا لا نستطيع تجاهل استغرابنا الشديد من بعض التصرفات المبالغ بها، وأحيانًا لا نستطيع استيعاب بعض العقليات، ولا يمكننا تفسير التصرفات.

ونجد أنفسنا نطرح دائمًا سؤالًا: لماذا؟ باحثين عن إجابة شافية لفهم هذه العقليات؛ لذلك فإن العقليات تختلف اختلافًا كبيرًا. فأنت لا يمكنك أن تفكر وتتصرف مثل شخص آخر، ولا يمكنك إيجاد تفسير لكل تصرف ولكل موقف.

نفس الإنسان تميل إلى تحليل الآخر، ونحن دائمًا متطلعون لمعرفة ما يجول في خواطرنا، نحب قراءة العقول والتصفح في تفسير تصرفات البشر، ولكن ما يؤدي إلى سوء الظن والفهم وما يزيد الأمور تعقيدًا أننا نأخذ ما ظنناه وجال بأنفسنا بجدية وكأنه صحيح؛ فنظلم بعضًا أو ننكر شعور بعض آخر لمجرد أننا ظننا أن ذلك صحيح.

فعقولنا تختلف، ولكل منا طريقته الخاصة في التفكير، طريقة تحكمها مبادئ وعقيدة وبيئة ونفسية معينة. أعتقد أن الاختلاف جميل، وأن من العيب فينا أننا نرغب في فهم كل تصرف وكل عقلية. ربما ذلك مهم للبعض الذي تجبره الحياة العملية على ذلك، أما عامة الناس فأظن أن التعمق ليس بالضرورة، وربما أيضًا ليس بالشيء الجميل؛ فهو لا يتلف أحدًا مثل ما يتلفنا نحن.

المتاح دائما غير مرغوب

من السخيف حقًا أنه إذا كنت متاحًا دائمًا، تصبح فجأة في نظر الجميع كالعطر الذي لم يعد له رائحة! وأنت تظن أنك تقدم الدعم والمساعدة، لكن يبدو أن العالم يقول: «أوه، أنت هنا؟! ما الذي جلبك؟» مثل شخص يتصل بك فقط عندما يحتاج شاحن هاتف، ولكن بمجرد أن يشحن، يختفي. يصبح وجودك وكأنك مجرد «مرفق» غير مهم! لا بد أن تنسحب بين الحين والآخر، حتى لا تشعر أن قيمتك أصبحت مثل قهوة الصباح الباردة… كان لها نكهة، لكنها أصبحت مجرد ماء ساخن الآن.

هذه المعادلة سخيفة، لكن للأسف، العلاقات مليئة بتلك القوانين العجيبة التي تثير الغثيان. وددت لو أننا نتعامل بصدق، ولو مرة واحدة! نتوقف عن اللعب بالكلمات ومحاولة إخفاء ما نشعر به وراء الأقنعة، ونقول ما في خواطرنا.. مثل «لا أريد أن أتحدث معك الآن!» أو «أحتاج لبعض الوقت لأكون وحيدًا!»، دون أن نخشى أن ينقلب علينا الكون.

مربكة هي العلاقات! تقف في منتصف الطريق، تحاول أن تقرأ إشارات الطريق، ولكن الجميع يبدون وكأنهم نسوا إشارات المرور، بل ويركبون على الطريق المعاكس. تملؤها القواعد التي لا تسير إلا في اتجاه واحد: «إذا كنت دائمًا موجودًا، إذًا أنت غير مهم». هل أنا مختلف جدًا في هذا العالم؟ أم أنني أحتاج إلى بطاقة عضوية في نادي «العلاقات المعقدة» لأفهم القواعد؟ في الحقيقة، لا أعلم، لكني أعتقد أنني كنت أحتاج إلى وقت مستقطع.

المشكلة أن وجودك الدائم وعطاءك المستمر يُنظر إليه على أنه عيب! في هذا العالم، يُفضل أن تكون كالظلال التي تظهر وتختفي بسرعة. دائمًا يُرفع المستهتر على الملتزم، وكأن الالتزام أصبح شيئًا من الماضي! دائمًا يحظى الطالب المهمل بكل الاهتمام، أما الطالب الجاد فهو مجرد «زائر عابر» في القاعة. العلاقات في هذا الكون سخيفة، مثل كل شيء آخر، على نقيض الظاهر تمامًا.

مثلَا، من الطبيعي جدًا قتل العنكبوت دون أن يتفوه أحد بكلمة، لكن إذا قررت أن تقتل فراشة، ستجد نفسك في محكمة عالمية للمحاكمة بتهمة «القتل العاطفي»! الكائنات نفسها، ولكن النظرة إليهما كأنهما من عالمين مختلفين! كأن شكل الكائن هو من يحدد قيمته في هذا الكون العجيب.

في النهاية، العلاقات هي لعبة كأنك تلعب مع «شخص» يبدو غريبًا جدًا، ولكنك تشعر أنه في النهاية هو الشخص الذي يملك اللعبة كلها. لا أحد يفهم تمامًا كيف تعمل هذه اللعبة، لكننا جميعًا نقوم بها؛ لأننا مجبرون على ذلك، حتى وإن كانت ممتلئة بالقواعد التي تجعلنا نفكر أحيانًا أننا بحاجة إلى استراحة من العالم بأسره.

وجوة عابرة

ركبت الحافلة، فوجدت نفسي بين وجوهٍ تتقاطع كل منها مع وجهة مختلفة. لم أُلقِ بالًا لصوت الباب الذي يُغلق خلفي، ولا للمياه التي تنساب من تحته كأنها أصداء لرحلة لا تلتفت إلى الوراء. كل شيء حولي كان يتلاشى، إلا صوت أفكاري التي بدأت تهمس في أذني، كأنها تسعى لملء المسافة بيني وبين وجهتي المجهولة.

كانت الحافلة تعجُّ بأقدامٍ تتحرك في صمتٍ وكأنها تغرق في عالمها الخاص، وكنت أنا، غريبًا وسط الجميع، أسير في طريقي الذي لا يبدو له نهاية، محاطًا بوجوهٍ تشبه الأشباح، لا يهمها من أنا ولا إلى أين أسير.

وأخيرًا، وقفت أمام الوجه المطلوب، قُمت متثاقلًا، خطواتي تجرني نحو مكتبي كما لو أنني أسير في طريق لا نهاية له. بينما كنت أمشي، أردت أن أحيي المكان كما اعتدت، ليس بدافع الرغبة، بل كنوع من العادة التي لا فكاك منها.

دخلت، فاستقبلني منظر الملفات المتراكمة على مكتبي، وكأنها جبال من الأعمال التي لا تنتهي. تنهدت بقوة، وشعرت بأن كل تنهيدة تحمل عبء يوم طويل، ثم جررت أقدامي نحو مكتبي، مستعدًّ ا لملاقاة ما سيحمله اليوم من مزيد من التحديات.

لكن بعد أن هممت بالرحيل، لاحظت رجلًا غريبًا يقف عند باب المكتب. كان فجأة في مشهدي اليومي، وكأنَّ الزمن قد أوقفه في تلك اللحظة. نظرت إليه، فكان يبدو عليه الفقر والتعب، ملابسه رثة وشاحبة، ووجهه مسكون بهموم لا تنتهي.

يداه ترتجفان من الإرهاق، وعيناه تغرق في عالم بعيد، حيث لا صوت سوى صدى الحياة القاسية التي عاشها. شعرت بشيء غريب يعتصر قلبي، شعور بأن هذا الرجل يحمل أكثر من مجرد قصة حزينة؛ إنه يحمل عبئًا لم يكن ليُفهم إلا بتلك النظرة الصامتة.

نظرت إليه بعمق، متأملًا في ملامح وجهه التي تحمل سنوات من المعاناة، ثم دون أن أقول شيئًا، انسحبت بهدوء، متجنبًا تلك النظرة التي كانت تلاحقني حتى بعد أن ابتعدت. فشعرت بالغرابة تتسلل إلى داخلي، وكأنني لم أكن فقط أمام رجل غريب، بل أمام لحظة من الزمن نفسه، لحظة لن تتكرر.

ومع ذلك، كان يراودني شعور غريب، شعور بأنه يوجد من يشعر مثلي، بأن الحياة قاسية وبائسة، وكأننا جميعًا ضحايا لتلك القسوة التي لا مفر منها.

ثم أدركت، كما أدركت في لحظات سابقة، أن كلًّ ا منا يعيش في عالمه الخاص، يتألم في صمت، ويبحث عن الأمل وسط الظلام. ربما كانت تلك اللحظة أكثر من مجرد لقاء عابر، بل هي تذكير أن الحياة على الرغم من قسوتها، تخلق دائمًا تواصلًا خفيًّ ا بين الأرواح. ونحن جميعًا نحتاج إلى تلك اللحظات التي تمنحنا القوة للاستمرار، حتى ولو كانت غير مرئية لأعيننا".

رحلة التصالح مع الماضي

لطالما كانت العودة إلى الجذور موضوعًا شائكًا، فالماضي يظل في كثير من الأحيان أكثر من مجرد ذكرى؛ إنه عبء يحمل في طياته لحظات قد تكون صعبة، وقد تكون محطمة. لكن العودة إلى المكان الذي وُلدنا فيه لا تعني فقط العودة إلى المكان ذاته، بل إلى اللحظات التي كونت هويتنا، إلى الأشخاص الذين كانوا جزءًا من ماضينا، وإلى أنفسنا التي تغيرت بمرور الوقت.

كنت قد قررت العودة إلى الحي الذي وُلدت فيه، بعد سنوات من الغياب، محملًا بذكريات لم تُمحَ، وألمٍ من ماضٍ مضى، وأنا أبحث عن نفسي التي تاهت بين الهموم والانشغالات. كانت السيارة تنساب على الطرقات المألوفة، وحين كنت أنظر من نافذتها، كانت الذكريات تتسلل إلى عقلي كصور مشوشة، ولكنها تحمل في طياتها كثيرًا من الشوق والحنين. كان قلبي ينبض بالقلق والتساؤلات: هل ما زال هذا المكان كما هو؟ هل يتذكرني الناس كما كنت، أم أن الزمن قد غير كل شيء؟

عندما وصلت إلى البيت القديم، كان كل شيء كما تركته، وكأن الزمن قد توقف في تلك اللحظة. الباب الخشبي ذاته، النوافذ التي كانت تطل على الحديقة التي زرعتها أمي بكل حب، ورائحة العنبر التي كانت تعبق في الأرجاء. ولكنني، وأنا أواجه هذا المكان، شعرت بشيء غريب؛ شعرت أنني شخص آخر. ربما كانت الحياة قد حملتني بعيدًا عن هذا المكان، لكنني الآن عدت إليه، وأنا أرتدي قناعًا ممتلئًا بالتجاعيد والندوب التي خلفتها سنوات من الفقد والندم.

اللحظة التي فتحت فيها الباب أمامي كانت ممتلئة بالتوتر، الشاب الذي قابلني كان يحمل نظرات غريبة، وكان يتساءل عن هويتي. وعندما أخبرته من أكون، لم يكن يعرفني كما كان الحال في الماضي. توفي والدي وجدي، وأصبح المكان كما لو أنه خالٍ من ذكرياته القديمة. كنت أعلم، في تلك اللحظة، أن الزمن قد تغير، وأن ما كنت أظن أنه ثابت هو في الواقع متحرك ومرتبط بتجارب الآخرين. كان هذا بمنزلة اعتراف بأن الماضي لا يعود، وأننا نحن من نخلق ملامح المستقبل.

لم تكن العودة إلى الغرفة القديمة أمرًا سهلًا، فقد كانت ممتلئة بتفاصيل لم تتغير، وكأنها تحمل كل لحظة مضت وكل حلم ضاع. ولكن ما وجدته في تلك الغرفة لم يكن مجرد ذكريات، بل كان بداية جديدة. ذلك المكان الذي كان يومًا ممتلئًا بالأحلام والأصوات البريئة، أصبح الآن شاهدًا على تغيرات الزمن وندوب الماضي.

ومع مرور الوقت، بدأت العائلة الجديدة تتعرف على ملامحي الجديدة، وبدأت أرى في وجوههم مشاعر غريبة. كان الأطفال يهمسون عني، وزوجة ابن أخي كانت تنظر إليَّ بحذر، لكن في عمق هذا الحذر كان هناك شيء من الترحاب. كنت أشعر بشيء غريب في داخلي، ولكن ذلك الشيء كان أيضًا بداية لتغيير ما. ربما لم أعد في مكاني الذي كنت فيه، لكنني كنت أبدأ في إعادة بناء مكان لي في هذا العالم.

ومع مرور الأيام، بدأت أفتح قلبي تدريجيًّ ا. بدأت أرى نفسي في مرآة جديدة، وأتعلم كيف أقبل ما حدث وأعيش فيه لا حوله فقط. كان التغيير بطيئًا، لكنه كان مستمرًّ ا. كنت أكتشف أنني لا أحتاج العودة إلى الماضي لأجد نفسي؛ بل إنني أحتاج إلى استحضار الماضي بسلام؛ لأنني قد لا أستطيع أن أغيره، لكنني أستطيع أن أختار كيف أعيش فيه.

وفي نهاية المطاف، أدركت أن العودة إلى الماضي ليست مجرد استعادة للأماكن والأشخاص، بل هي رحلة نحو الذات. كانت العودة تعني لي إعادة اكتشاف نفسي، والتصالح مع كل ما فات. فالحياة لا تتوقف على ما مضى، بل على كيف نستطيع أن نعيش في الحاضر ونبني المستقبل.

الصدق

أنا شخصٌ يُقدِّس الصدق، مهما كان لاذعًا، لأنه يُعدُّ أساسًا لا غنى عنه في حياتي.. الصدق ليس مجرد كلماتٍ نقولها، بل هو مبدأ نعيشه ونتنفسه.. إنه أمانة تجاه كل شيء: تجاه الأشخاص، وتجاه الذات، وأهم من ذلك تجاه الحقيقة.

في عالم مملوء بالمراوغات والضلالات، الصدق هو الشمعة التي تُنير الظلمات، وتمنح الحياة نقاءً وتفرُّدًا، تجعلها تبدو أنقى وأوفى، إنه يجعل الحياة أكثر واقعية، أشد احترامًا، وأكثر تقديرًا.

في زمانٍ يسوده الكذب والأوهام، يكتسب الصدق قيمةً لا تُقدَّر بثمن، ويُصبح أسمى أمانة في التعامل مع النفس ومع الآخرين، ومهما كان الصدق مُرًّ ا، حتى وإن كان لاذعًا، فإنني أُفضله على الزيف والتلاعب، وعلى المجاملة التي تقود إلى ضياع الحقيقة.

إن الصدق هو الرؤية الثاقبة التي تكشف الستار عن عالمٍ مملوء بالمظاهر الزائفة، فمن خلال الصدق نكسر قيود الخداع ونُواجه العالم على حقيقته، فتظهر الأشياء كما هي، دون تزييف أو تلاعب.

قد يبدو الصدق قاسيًا في لحظاتٍ معينة، لكن قوته تكمن في أنه يزرع ثقة حقيقية بين البشر، ويخلق علاقات قائمة على الوضوح والاحترام. أما الكذب، فيبني جدرانًا من الرياء، ويجعل العلاقات هشَّة، تتداعى في أول اختبارٍ حقيقي.

الصدق مع الذات هو بداية الصدق مع الآخرين؛ فحينما نكون صادقين مع أنفسنا، نكتشف عالمًا آخر من النقاء الداخلي، وتُصبح أرواحنا أكثر قدرة على التفاعل مع الحقائق دون خوف.

لا يوجد أروع من أن نعيش حياتنا بصدق، غير مُبالين بالأقنعة التي يرتديها الآخرون.. أشعر بالعطش إلى الصدق، إلى أولئك الذين يتحدثون بحقائقهم، دون تجميل أو تزييف، هؤلاء الذين يُعبِّرون عن أنفسهم بصدق، حتى وإن كانت كلماتهم قاسية؛ لأنهم بذلك يصنعون عالمًا أفضل وأكثر جمالًا.

الصدق ليس سهلًا دائمًا، فهو يتطلب شجاعة كبيرة، خصوصًا عندما يكون الثمن غاليًا، وقد يضعنا في مواقف صعبة، وقد يواجهنا الآخرون بآراء مختلفة، ولكن في النهاية، تبقى قيمة الصدق أكبر من أي مصلحة شخصية أو راحة مؤقتة، فهو هو الطريق الذي يضمن لنا سلامة الضمير وراحة البال.

في علاقاتنا بالآخرين، يظهر الصدق في قدرتنا على الاعتراف بأخطائنا وتصحيح مساراتنا، إذ ليست كل العلاقات بحاجة إلى كلمات جميلة وأقنعة، بل إلى الصدق الذي يُبني الثقة ويحفظ الاحترام؛ لأن العلاقات التي تعتمد على الصدق ليست محصنة ضد التحديات، لكنها تظل قوية بما يكفي لتحمل تلك التحديات وتحويلها إلى فرصٍ للنمو والتطور.

وأخيرًا، الصدق هو الصديق الذي لا يخون، فهو يظل ثابتًا حتى في أحلك الأوقات، ويُعد الرفيق الذي يزرع الأمل في النفس ويجعل الحياة أكثر وضوحًا وتماسكًا، وعلى الرغم من صعوبة الطريق نحو الصدق، فإنه في النهاية السبيل إلى حياةٍ مملوءة بالسلام الداخلي والصدق مع الآخرين

رحلة نحو الحرية

في لحظة من لحظات الليل الهادئ، حيث تتساقط الثلوج من السماء وتغطي الأرض ببياضها الصامت، أقف بين نافذتي الصغيرة والمساحة البيضاء الممتدة أمامي، شاعرةً أنني غريبة في هذا المكان.

ليس لي هنا مكانٌ أنتمي إليه؛ فلا دفء في قلب هذا الشتاء البارد، ولا راحة في هذا البيت الخشبي المهدم. الحياة هنا تمثل جمودًا قاسيًا، شيءٌ ينمو فيه الإنسان دون أن يشعر به، وكأن الأرض نفسها قد تخلت عن الحلم.

في هذا الجو الكئيب، الذي يُصاحبني كل ليلة، أجد نفسي تتساءل: هل أستحق هذا المكان؟ هل يمكن أن يكون هذا هو المكان الذي أنتمي إليه؟ كل يوم أعيش فيه، أكتشف أنني لست مجرد شخصٍ يمر بحياته، بل أنا كائنٌ ضائع في عالمٍ لا يتسع لأحلامه.

في هذه القرية، لا شيء يتغير. الحياة تتكرر على الوتيرة نفسها: شتاء بارد، وصيف حار، وشتاء آخر يعاودنا. لا حركة، لا طموح، فقط الهدوء الذي يقتل كل فكرة في الرأس. ولكني لا أستطيع أن أسمع صوت الذئاب التي تكرِّر زياراتها لي كل ليلة، ربما لأنني لا أرغب في الاستماع إليها.

ليس لديَّ الفضول لذلك، فكل شيء هنا يبدو وكأنه سيختفي في لحظة. أظل أكرر لنفسي أنني سأغادر قريبًا. لا بد لي من الرحيل؛ فلا مكان لي هنا.

أظل في حيرة دائمة: هل أستطيع فعلًا أن أغادر؟ هل يظل هذا المكان في ذاكرتي أم أنه سيختفي بمجرد أن أرحل؟ حصاني هو الشيء الوحيد الذي أحببته هنا، يظل يرافقني كل يوم. أحب هذا الكائن الطيب؛ لأنه يمثل لي رمزًا للحرية، وأتساءل: هل يرغب هو الآخر في الرحيل معي؟

لا أستطيع أن أجيب، ولكنني أراه يتطلع إلى ذلك الأفق البعيد الذي يقودنا إلى عالمٍ مختلف. قد يكون هذا الأفق هو المكان الذي سأجد فيه نفسي، أو ربما هو مجرد حلم.

وفي كل مرة أعود فيها إلى البيت الخشبي، أجد أبي جالسًا على كرسيه المتحرك، ينظر إلى زاويةٍ فارغة، وكأن روحه قد غادرت جسده. أمي تقترب منه، وتساعده في تناول غدائه، ثم تلتفت إليَّ بابتسامة صامتة تدعوني للجلوس إلى المائدة. وهنا، بين طبقٍ وآخر، أجد نفسي غارقة في صمت قاتل، لا شيء يعكر هذا السكون سوى تساؤلاتي الداخلية: هل أظل هنا إلى الأبد؟ هل هذا هو مصيري؟

ثم تقتحم أمي صمتي قائلة: "هل ما زلت تفكر في الرحيل؟ لم تعد تخبرني بذلك منذ مدة".

أجيبها، وقد شعرت أنني أخشى رد فعلها: "نعم، سأحمل حقائبي وأغادر في نهاية هذا الشهر".

ترتفع نبرة صوتها: "أهذا هو قرارك؟ لم يعد لديك ما تقوله لي؟ لماذا تفعل بي هذا؟".

أحاول أن أقطع حديثها بهدوء، وأقول: "لقد اخترت حياتي، ولن أقبل أن تمنعيني من اختيار طريقي. كما أنك اخترت حياتك، فقد حان دوري الآن".

ثم تدمع عيناها، ولكني لا أستطيع أن أسمح لنفسي بالبقاء هنا. لا يمكنني أن أعيش في هذه القرية النائية التي لا توفر لي سوى الفراغ. لا أستطيع أن أقبل حياةً لا أؤمن بها. الحياة ليست مجرد وجود، بل هي اختيار الطريق الذي يتناسب مع طموحي. أريد أن أكتشف نفسي، وأن أعيش الحياة التي أؤمن بها، بعيدًا عن القيود التي تحاصرني هنا.

الرحيل ليس مجرد قرارٍ للهروب من الواقع، بل هو خطوة نحو الذات.

حملت حقائبي، وعرفت أن الرحيل هو الحل الوحيد لي. على الرغْم من الحزن الذي يعتصر قلبي، لكنني أدركت أن الحياة تضع أمامنا اختيارات لا بد أن نختار منها ما نؤمن به. الحياة تضع أمامنا قرارات صعبة، ولكن في النهاية يجب أن نختار الطريق الذي يتناسب مع أحلامنا. تركت خلفي كل ما يربطني بهذا المكان، لأنني أدركت أنني لا أستطيع أن أعيش في ظل حياةٍ لا أؤمن بها.

اخترت أن أكون أنا، دون أن أعيش في ظل توقعات الآخرين. الرحيل هو ما سيساعدني في أن أجد نفسي، ولو كان يعني أنني سأغادر دون أن أعود. الحياة تضعنا أمام مَفرِقِ طرق، ونحن مَن نقرر أيها نسلك. الرحيل، في نظري، هو بداية جديدة، هي بداية لتحقيق الذات، وأخيرًا اكتشاف الحياة التي طالما حلمت بها.

في النهاية، فالحياة سلسلة من الاختيارات. علينا أن نتعلم أن نختار بأنفسنا، مهما كانت التحديات التي قد نواجهها. الرحيل قد يكون قاسيًا، لكنه ضروري أحيانًا لكي نجد أنفسنا ونحقق ما نريد. لا يجب أن نبقى في أماكن لا تنتمي إلينا، بل يجب أن نسعى وراء ما يحقق لنا السلام الداخلي والراحة النفسية، مهما تطلب الأمر من تضحية

علاقات مبنية على المصلحة الشخصية

علاقات مبنية على المصلحة الشخصية: إمَّا أن تقدِّم لي، وإمَّا أن تقدِّم لي!

معظم العلاقات الإنسانية مبنية على المصلحة. فكل شخص يريد شيئًا منك، حتى لو لم يطلبه بصراحة.

بعض يريدك أن تنفِّذ رغباته ليشعر أنك «صالح»، ومفهوم الصلاح هنا ليس نابعًا من ضمير، بل نوع ناعم من أنواع العبودية.

وبعض آخر يريدك أن تكون مصدر سعادته، وإن لم تكن، فلن يتقبَّل تعاستك، بل قد يحمِّلك ذنب مشاعره.

وهناك من يراك مشروع استثمار طويل الأجل، يراهن على عوائدك العاطفية أو المادية.

ومنهم من يتعامل معك كقطعة ديكور فاخر، تكمل مظهره أمام الناس، تمامًا كما تفعل ساعة من ماركة عالمية.

وحين تتوقف عن العطاء، حين لا يعود لديك ما تقدمه، تصبح «لا شيء» في أعينهم.

كأنك كنت قيمة مؤقتة، لا شخصًا حقيقيًا.

لكن، في زحمة هذه العلاقات المعلَّقة بالخيوط الرفيعة للمصالح، قد تُرزق بعلاقة واحدة صادقة، نادرة كالمعجزة.

علاقة تخلو من الحسابات، تُبنى على الشعور، لا على الفائدة.

شخص لا يريد منك شيئًا، ومع ذلك يتمسك بك، فقط لأنك أنت.

وغالبًا، إن تأملت جيدًا، سترى هذه العلاقة في صورة أخت لأختها، حب فطري لا يشوبه غرض.

لا أجزم بأنها العلاقة الوحيدة النقية، فكل إنسان يرى النقاء في زاوية مختلفة من حياته.

لكنني أؤمن أن العلاقات الخالية من المصلحة نادرة، وأنه من المؤلم أن تُقحم ذاتك في حياة لا تحتاج إليك إلا عند الطلب.

فما فائدة الوجود في حياة الآخرين، إن كان وجودك مرهونًا بما تقدم، لا بما تكون؟

في عمق الاشياء البسيطة

أحيانًا، نظرة عابرة إلى وجه طفل، كافية لتكشف لنا الحقيقة كلها.

نرى النقاء كما يجب أن يكون، نلمس البراءة قبل أن تُخدَش، ونشعر أن العالم لم يكن يومًا معطوبًا… بل نحن من أفسده.

كلما تأملتُ في وجه طفل، أيقنت أننا نحن المشكلة.

نحن من يلوّث الفطرة السليمة، نحن من يدّعي الحضارة ويزرع الخراب.

تدخلنا في الطبيعة، فأتينا بالمبيدات، وعبثنا بنظام البيئة، وسمَّينا ذلك تقدمًا.

لكننا لم نجلب سوى الخراب… وها نحن نستمر.

نُفسد الأرض كما نُفسد أنفسنا.

نبدأ من داخل النفس البشرية، ثم نتمدّد إلى كل ما حولنا، فلا يبقى شيء إلا وتنكَّس وجهه.

وفي لحظة صفاء، قد تأتيك ابتسامة واحدة، صادقة، من القلب…

فتعيد ترتيب فوضاك الداخلية.

تجعلك تتساءل: كيف لشيء بهذه البساطة أن يكون بهذا الجمال؟

وجوهنا ليست قبيحة، لكن أرواحنا المطموسة جعلت الملامح مشوشة.

أما الصدق، فهو ذلك الضوء الخفي الذي يشع من داخل الإنسان، فيجمل ملامحه ولو لم تكن جميلة في ظاهرها.

كل شيء حقيقي، صادق، نزيه... يملك طاقة لا تُرى، لكنها تُحس.

الروح تلتقطها فورًا؛ لأن الأرواح تعرف بعضها من الرعشة الأولى.

والنقاء، هو الفخامة الحقيقية، وإن كان بسيطًا، متواضعًا، بعيدًا عن الأنظار.

أما الزيف، فهو ذلك اللمعان من بعيد.. الذي ما إن اقتربتَ منه، حتى انطفأ.

لكن، ما هو أقسى ما نواجهه حقًا؟

أن تفرض علينا الحياة أن نكبر.. قبل أن نفهم أنفسنا.

أن تمرَّ بنا المواقف، وتعبث بالسنوات، وتُشوه عفويتنا.

فتُغمض أعيننا في طفولة نظيفة، ثم نستفيق – بعد فوات الأوان – على قلوب مثقلة بالنقاط السوداء.

ننظر إلى دواخلنا، فنجد الغيرة قد تسللت، والحقد قد استقر، والحسد صار ضيفًا مقيمًا.

ونتساءل: كيف وصلنا إلى هنا؟

أين تاهت نفوسنا الفطرية النقية؟

نشتاق لأنفسنا القديمة.

نشتاق لتلك الروح التي لم تكن تخاف، لم تكن تحسد، لم تكن تُقارن.

نشتاق إلى صدقٍ لم يُلوَّث، وعفوية لم تُستبدل بابتسامات مُجبرة وكلمات مُنمّقة.

كل ما هو صادق، ولو كان بمقدار ذرَّة، يدخل القلب دون استئذان.

لكن الصدق... أصبح نادرًا.

كأننا نعيش في عالم مقلوب، تزيّنت فيه الأقنعة، وافتُقد فيه الجوهر.

إننا لا نبحث عن الكمال، بل عن الحقيقة.

والحقيقة ليست في البريق، بل في العمق.

في ما لا يُقال، في ما لا يُعرض، في ما لا يُشترى ولا يُباع.

في تلك اللحظة التي ترى فيها وجه طفل، فتعرف من فوره... أن كل شيء آخر، كان خدعة.

غرباء في مرايا السلطة والذات

أستطيع أن أرى فيهم... رجلًا واحدًا بثلاثة وجوه.

هتلر، أحب وطنه كمن يحب البطلة في رواية مظلمة... لكن حبه كان يشتعل على هيئة نار، لا ورد، فأغتال العالم ليحفظها من «الخطر» الذي تخيَّله.

ميكافيللي، كاتب لا يؤمن بالبطولة إلا إذا خضعت للمصلحة، هو البطل البارد... الذي لا يمانع قتل الحب إن خالف بوصلة السلطة، حبيبته كانت «الحقيقة»، لكنه خنقها حين صارت تهدد العرش.

تشي غيفارا، ثائر بعينين متعبتين، أحب أمته كما يحب الجندي أرض معركته،

قتل... بيدٍ ترتجف من الحنين، ليُبقي على الأمل حيًا، لا على الحب.

هؤلاء الثلاثة... تشابهوا، واختلفوا.

جمعهم اشتعالٌ داخلي، وغربة، وصراع بين القلب والسلاح.

لكن من فيهم انتصر؟

هتلر ترك خلفه رمادًا.

ميكافيللي بقي كظل في كتب الطغاة، أما غيفارا... فصار أغنية.

لكن تبقى الفكرة واضحة، تتكرَّر في كل زمن، كل حضارة، كل بيت:

رغبة السيطرة.

كل من امتلك السلطة والمال، تمنّى أن يمتلك العالم — لا حبًا فيه، بل حبًا للهيمنة عليه.

إنها النرجسية.

إنها الديكتاتورية في أقسى تجلياتها...

وليست حكرًا على الحكّام الكبار، بل تتسلَّل في شكل الأب المتسلّط، الزوج الذي يصادر الحياة، القائد الصغير في المجتمعات المنغلقة.

ومع ذلك...

أنا لا أرفض هؤلاء الرجال، بل أرغب في «امتصاصهم»، دراسة عظمتهم المظلمة، لا تقديسهم... بل تفكيكهم، للاستفادة القصوى من فهمهم.

لماذا نرفع كتبهم إلى رفوف «المحظور»؟

نحن لا نمنع الداء بنفيه... بل بفهمه.

«غريبة... حتى عني»

أستطيع أن أسأل نفسي مرارًا... دون أن أملّ:

لماذا وصلتِ إلى هنا؟

لماذا توقفتِ، وهناك طريق طويل لم يُكمل؟

لماذا تبكين ثم تضحكين، ثم تنسلِّين إلى صمت ثقيل؟

هل أنتِ مجنونة؟ أم أن القدرة على اتخاذ القرار تعطَّلت فجأة... دون إنذار؟

هل تعطَّل العقل... أم تعطَّلتِ أنتِ؟

هل حان وقت الرحيل... أم أنني لم أكن هنا أبدًا؟

عندما أرنو إلى المستقبل، أراه شاحبًا.

وعندما أعود للماضي، لا أجدني.

كأنني كنت نائمة طويلًا...

واستيقظت على يدين خاليتين، ثم تلاشتا.

أصمت...

ثم أغيِّب نفسي عن الوعي، مرة أخرى.

غريبة أنا...

غريبة بيني وبين نفسي، وغريبة بين الآخرين.

لطالما زارني صوت يقول: «هذا المكان ليس مكانك».

ولا يزال يأتي... كأنه يعرفني أكثر مني.

وأشعر أنني، مثله، مجرد زائرة.

زائرة لكل بيت... لكل لحظة... لكل شعور.

هل يُمضي الإنسان عمره كله غريبًا؟ أم أن الغربة قدر من يدرك نفسه؟

مفضوح حتى العظم

حقيقة، كما قال دوستويفسكي -ذاك الذي اختار الصمت بعدما قال كل شيء، ليس لأنه نفد من الكلام، بل لأنه أدرك أن لا أحد يستمع فعلًا.

كنت أظن -ويا لغباء الظن- أنني إذا نزفت ما بداخلي كما يُفرغ إبريق شاي نُسي على النار، فسأُشفى. تخيَّلت أن البوح علاج، وأن تفريغ الذات كفيل بتطهيرها. لكن الحقيقة؟ الحقيقة وقحة، لا تغادر حتى لو صرخت في وجهها.

اكتشفت متأخرًا أن الكلام لا يحل شيئًا، وأن ما يُعتقد أنه مستور، مفضوح حتى العظم. لا أحد ينجو من عينيه، لا أحد يُخفي شيئًا إلا ويُسربه في تصرف، في نبرة، في نظرة تصرخ بما لا يُقال.

كل شيء واضح، فجّ، جالس على السطح كقطة شبعانة تتحداك أن تنكر وجودها.

الوجوه تتكلم، التصرفات تنبح، والعلاقات تُعرِّي نفسها من أول لقاء. فلمَ نكذب؟ لمَ نتظاهر بالدهشة كل مرة تنهار فيها الحقيقة التي كنا نعرفها مسبقًا؟

لهذا أقول لنفسي: دوستويفسكي لم يكن فيلسوفًا فقط، بل كان شاهد عيان على انهيارنا الداخلي. الصمت لم يكن انسحابًا، بل إعلان حرب: «أنا رأيت، فهمت، وسأراقبكم وأنتم تغرقون فيما نطقتُ به منذ زمن».

ما كنت أريد أن أصرخ به، قيل. ليس فقط قيل، بل كُتب، صُرخ، وُشمّ على جدراننا. لكنني لم أكن أملك الوعي لأقرأه.

ويا للسخرية: لكي تفهم تلك الحقيقة، لا يكفي أن تسمعها أو تراها، بل يجب أن ترتطم بها وجهًا لوجه، أن تعيشها، أن تنكسر وتضحك بسُمية، تمامًا كما قال دوستويفسكي—تقول كل شيء، كل شيء، ثم تنسحب إلى صمتك، ليس ضعفًا، بل لأن الحقيقة لا تحتاج إلى تكرار.

ربما السبب أننا لا نفهم، ولا ندرك تمامًا مستوى الوقاحة التي تتعامل بها الحياة معنا. نعيش بوهم أن الأشياء تُقال بلطف، أن الكدمات تأتي باعتذار، لكن الحقيقة؟ الحقيقة تصفعك بيد باردة، دون أن تكلِّف نفسها عناء التبرير. نحن لا نستوعب إلا متأخرين أن العالم لا يتعاطف مع هشاشتنا، بل يعرّيها، يستعرضها كعيب لا يُغتفر.

لهذا، يصبح الصمت خيارًا أمثل. لا لأنه راحة، بل لأنه تجنّب مؤلم للندم. الصمت لا يفضحك، لا يجرّك لخذلان جديد، لا يتركك عاريًا أمام من لا يستحق رؤيتك. هو لا يمنحك خلاصًا، لكنه في الأقل لا يضيف جرحًا جديدًا إلى كومة الجروح القديمة. الصمت هو ما نلجأ إليه حين نفهم أن النجاة لا تكون بالصراخ، بل بالانكماش في الزاوية الأقل إيذاء.

يا لعنة الوعي.. ويا زائري القاسي

يحمل هذا النص النثري صرخة وجودية مؤلمة، يصف الوعي بوصفه لعنةً لا رحمة فيها، ويضع الكرامة في مواجهة مستمرة مع واقعٍ قاسٍ لا يعترف بالنبل، يعبّر النص عن روحٍ تتوق للعلو من منبعٍ روحي وأخلاقي، لكنه تُجلد بلعنة الإدراك وسط عالمٍ يُقصي القمم ويؤلّه القاع، بين البرودة الرمزية و«كلابٍ مسعورة» تنهش الجسد والكرامة، تتجلى مفارقة الإنسان النبيل في زمن الانكسار.

يا لعنةَ الوعي... ويا زائري القاسي

يا لعنةَ الوعي
ما أثقلَ حضوركِ في ليالٍ
لا يُرتجى من بعدها فجر
وما أوجعكِ
حين تسكنين القلب في لحظةِ انكسار
كأنكِ سكينٌ من شعورٍ لا يرْحم
تغوصين في عمقٍ
ما عاد يحتمل الانهيار.

أيها الزائر القاسي
أما قيل لك من قبل
إنني لا أُجيد التجلُّد؟
إنني لستُ ممن يسايرون الرفق؟
إن قدومك الآن
هو طعنة لا تبرأ
وصقيعٌ يتغلغل في عظمِ الرجاء؟

كنتُ على حافة الطريق
حافي القدمين
والبردُ ينهشني
ككلابٍ مسعورة
وفي زاوية قميصي الممزق
كُتِب:
«مات بسبب جنون العظمة».

لكن، لا...
لم يكن جنون عظمة
بل كبرياءٌ نقي
عزةٌ لا تنحني
كرامةٌ لا تُشترى
ولا تُباع.

كانوا
وما زالوا
يرون النبلَ جنونًا
ويرهبون القمم
لأنهم اعتادوا القاع
وصاروا لا يثقون
بكلِّ من يحاول الصعود

آهٍ يا شتاء
لم أكن يومًا ممن يغازلون بردك
ولا ممن يجدون فيك عزاء
كنتُ منذ البدء منفيًا
بين رعشاتك
مطاردًا بلعنةِ وعيٍ
لا يغفر.

تراني...
إن أنا متُّ
أكتب على شاهدة قبري:
«عذرًا، لقد متُّ
لأنني كنتُ صاحب كرامة
ذا كبرياء
طامحًا لعلوٍ لا يُفسد
بل يسمو».

علوٌّ من خُلق
وسُموٌّ من روح
وارتقاءٌ من فكر
وإجلالٌ من ذاتٍ
لا تعرف الانحناء

يا هذا العالم
أما آن لك أن تعي؟
العظمة التي نطلبها

ليست تكبُّرًا
بل تطهُّر
ليست تجبُّرًا
بل بقاء.
وليست غرورًا

بل آخرُ قلاعِ الكرامة
حين تُغتال في وضحِ النور.

هذا النص النثري ليست بكاءً

داخليًّ ا، بل بيان كرامةٍ لا تستسلم،

وتأملٌ فلسفيّ في معنى الصعود، والانكسار، والاحتفاظ بالنقاء وسط عالمٍ معتل، لقد خطّ الشاعر مرثيةً فاخرة للروح الحرة، تلك التي لا تساوم على ذاتها، ولا تخشى أن تُفنى دفاعًا عن عزةٍ لا تُباع. نص يستحق التأمل؛ لأنه يهمس بما لا يُقال، ويصرخ بما يُخاف منه.

اسرار الظلال عبء الصمت و مرارة التواطؤ

من المؤلم حقًا أن تُزجّ أرواحُنا أحيانًا في دهاليز أسرار لم نُؤذن لسماعها، أسرار تُثقل الكاهل وتدكّ صفاءنا دون سابق إنذار، والأدهى من ذلك، أن من اختار أن يُقحمنا في ظلال خفاياه المظلمة، قد جعلنا شركاء في جريمة لم نرتكبها، جريمة الصمت المُر، والتواطؤ القسري.

نُفاجأ بأننا صرنا أمام مَفرِقِ طرق، مضطرين إلى اتخاذ موقف لم نختره، ولم يُستشر فيه ضميرنا. بعض هذه الأسرار قبيحة حد الاشمئزاز، تُجبرنا أن نُحدِّق في المرايا كأننا غرباء عن أنفسنا، نكره ما أصبحنا عليه. فنشعر وكأن شوائبهم تلطَّخت بأطراف أرواحنا، وتغلغلت في أعماقنا، تفسد علينا نقاءنا وبساطتنا.

حينها، يضجُّ العقل بأسئلة لا جواب لها: لماذا أنا؟ ماذا ينبغي أن أفعل؟ وكيف يريد الله مني أن أتصرف؟

وإن نحن صمتنا، غمرنا شعور واحد لا يُخطئ طريقه إلى القلب: الاشمئزاز. اشمئزاز من أنفسنا، منهم، ومن مجتمع يُتقن فن النفاق ويتزيَّن بالزيف.

ليست الراحة التي يجدها الناس في الحديث إليك دائمًا نعمة، وليست الثقة التي يمنحونك إياها دومًا هدية. ففي بعض الأحيان، لا يكون الإنصات فضيلة، بل عبئًا يجرُّك إلى قعرٍ لم تختر النزول إليه.

وددتُ لو أنني لم أُدعَ يومًا إلى الداخل، لو بقيت عائمة على السطح، هناك في الزاوية البعيدة، حيث اللهو، حيث لا شيء يُثقل الرأس ولا القلب. فقد تعلَّمت –وإن كان الدرس قاسيًا– أن الدنيا ليست لطيفة، ولا لبقة، ولا تُجيد الأخلاق. إنها لا تستأذن، لا تسألنا عمَّا نريد، ومتى نريد، ولا تطرق الأبواب، بل تقتحم.